

الشيخ سيدي يحيى العيدلي

ذلك العالمُ الوليُّ الصالحُ المجهول

الحلقة الثانية

د/محمد الشريف قاهر، عضو المجلس الإسلامي الأعلى
د/محمّد أو إدير مشنان، مدير التوجيه الديني والتعليم القرآني

تخرجوا منها، سواء من أبناء الناحية كأحمد بن عبد الرحمن، وإبراهيم بن عمار، ويذير الجمهوري، وأحمد بن يوسف، وبهلول بن عاصم...، وكذا من نواحي أخرى مشرقا ومغربا. لقد اشتهرت هذه المعصرة في حياة مؤسسها، وظلت كذلك بعد وفاته.

ذرية سيدي يحيى العيدلي ذكرت بعض المصادر التاريخية بعض أبناء الشيخ وأحفاده الذين كانت لهم مكانة هامة بين سكان المنطقة، ومنهم:

1 الموهوب بن علي بن بلقاسم العيدلي الذي عاش في القرن السابع عشر، اشتهر بالصلاح والتقوى⁽¹⁾،

أسس الشيخ سيدي يحيى العيدلي معمرته (زاويته) الجديدة في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي، واختار لها هذا المكان لتوفر الظروف المختلفة التي تساعد الطلبة على التعلم من هدوء، وتوفر الماء والبعد عن صخب الحياة، واستطاع بفضل علمه، وطريقته في التدريس، ومكانته أن يستقطب العديد من الطلبة الذين قصدوا هذه المعصرة للقراءة على مؤسسها، فاشتهرت بين معمرات المنطقة، بل أصبحت من المعمرات القليلة التي ذاع صيتها في فترة وجيزة، ودلينا في ذلك العدد الهائل من الطلبة العلماء الذين

2 أحمد، (أو محمد) بن علي العيدلي، سار على سيرة أبيه، وجده، فكان فقيها عالما رافق الشيخ الورثيلاني في حجته الثالثة، وعند عودته بقي مدة في مدينة عنابة، فدرّس هناك، ومن بين الذين أخذوا عنه العلم الشيخ أحمد بن عبد الله قاسم البوني⁽⁵⁾.

تصوفه

عرف عن الشيخ سيدي يحيى العيدلي اهتمامه بتربية النفس وتزكيتها بترويضها على الزهد والعبادة، ومما يروى أنه قضى نحو عشرة أعوام من حياته في عزلة داخل مغارة ضيقة اتخذها خلوة، وتقع أعلى الجبل الذي يوجد فيه الحمام المعدني (حمام سيدي يحيى العيدلي)⁽⁶⁾، «وقد اكتسبت هذه الخلوة شهرة واسعة على مستوى منطقة زواوة»⁽⁷⁾، ويبدو أنه متصل بالطريقة الشاذلية، كما جاء في بعض الأسانيد الصوفية.

ذكره الشيخ الورثيلاني بقوله: «ومنهم ذو العلم والمهابة والحلم والإنابة، والسطوة والاستجابة والتحقيق والإصابة، ذو العلوم الفاخرة، والأحوال الصادقة الظاهرة، والأنوار الباهرة، والأسرار الحاضرة ... الولي الكامل سيدي الموهوب نجل الشيخ سيدي محمد بن علي العيدلي»⁽²⁾.

لم يكن الشيخ الموهوب مهتما بالتعليم فقط، بل اهتم بشؤون الناس، فكان يتوسط بينهم وبين الحكام، كما ساهم هو وأبناءؤه في مرافقة القوافل المارة ببلاد زواوة لتأمينها من مكر اللصوص الذين انتشروا في المنطقة، فالمسافرون العابرون لجبال المنطقة كثيرا ما يستعينون به لتأمين مسيرهم والوصول إلى مقاصدهم⁽³⁾. كما أنه المجدد لمعمرة جده بعد رجوعه من الحج، ففرغ للتدريس بها، مما أعاد لها مكانتها خلال القرن الحادي عشر الهجري/17م⁽⁴⁾.

سند سيدي يحيى العيدلي في الطريقة الصوفية

ورد ذكر الشيخ سيدي يحيى
العيدلي في سند الطريقة العلاوية،
إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي،
وهو كما يلي:

- سيدنا ومولانا محمد بن عبد
الله ﷺ.

- سيدنا الإمام علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه.

- سيدنا الإمام الحسن بن علي t.

- سيدنا التابعي الجليل الإمام
الحسن البصري.

- سيدي حبيب العجمي.

- سيدي داوود بن نصير الطائي.

- سيدي أبو محفوظ معروف بن

فيروز الكرخي.

- سيدي أبو الحسن سري السقطي.

- سيدي أبو القاسم الجنيد بن

محمد البغدادي سيد الطائفتين.

- سيدي أبو بكر دلف بن جحدر

الشبلي.

- سيدي أبو الفرج عبد الوهاب

التميمي.

- سيدي أبو الفرج الطرسوسي.

- سيدي أبو الحسن علي بن

يوسف الهكاري.

- سيدي سعيد المبارك المخزومي.

- سيدي الغوث أبو محمد محيي

الدين عبد القادر الجيلاني الحسني.

- سيدي الغوث أبو مدين شعيب

الأنصاري.

- سيدي عبد الرحمن المدني

القطار الزيات.

- سيدي القطب عبد السلام بن

مشيش.

- سيدي القطب الجامع أبو الحسن

علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن

يوسف الهذلي الشاذلي الحسني.

- سيدي أبو العباس أحمد بن

عمر بن محمد المرسى الأندلسي

الأنصاري.

- سيدي تاج الدين أحمد بن عطاء

الله السكندري الشاذلي.

- سيدي شرف الدين داوود بن

عمر الباخلي السكندري المالكي.

- سيدي محمد وفا بحر الصفا
القرشي الأنصاري الشاذلي.
- سيدي أبو الحسن علي بن
محمد بن محمد بن وفا.
- سيدي يحيى العيدلي.

كراماته

تُرَوَّى عن الشيخ سيدي يحيى
العيدلي كرامات كثيرة وعجيبة،
ويبدو لي أن معظمها من نسج
المُخَيَّلَةِ الشَّعْبِيَّةِ التي بقيت وَفِيَّةً
للشيخ، وحافظت على مكانته
التي لم يرتق إليها أحد في ذاكرة
المجتمع وضميره في هذه المنطقة،
وذلك راجع إلى أن الشيخ سيدي
يحيى العيدلي عاش طيلة حياته مع
أبناء بلده، يخدمهم وينشر العلم
والفضيلة بينهم، ويدفع عنهم الآفات
الاجتماعية، ويرفع عنهم الظلم
والأذى، وخلال حياته لم يخرج من
منطقته إلا إلى بجاية طالبا للعلم،
فلما كان وفيا لقومه، كافأه قومه وأهل
بلده بكل هذا التقدير والتبجيل،
وحكوا عنه كرامات كثيرة، غير أن

الكرامة الكبرى في نظر الشرع هي
الاستقامة، وهذا ما تحلى به سيدي
يحيى العيدلي، يقول عنه الشيخ
الحسين الورثيلاني: «والكرامة القوية
انسلاخ قلبه عن البشريات، بأن صار
روحانيا ومَلَكِيًّا في باطنه، وأن قلبه
عرش من عروش تجليات الحق،
بأن اطمأن قلبه بذكر الله ﴿أَلَا
يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾⁽⁸⁾،
وأي كرامة أعظم من هذه، إذ صدره مع
الحق، وقاله مع الخلق... فالاستقامة هي
الكرامة، وإلا فاستدرج وخديعة، ولذا قال
تعالى: ﴿سَسْأَلُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾⁽⁹⁾ ⁽¹⁰⁾.

وقصيدة الشيخ المحبوب
أولحبيب، والقصيدة التراثية التي
أوردها الباحث بلقاسم بوسديرة
المكتوبة باللغة الأمازيغية تتضمنان
الكثير من تلك الكرامات التي ترويهما
الذاكرة الشعبية، وذكر الإمام عبد
الرحمن الصَّبَّاح من هذه الكرامات
وصول شيخه سيدي يحيى العيدلي
إلى مرتبة الكشف، حيث قال:



يُكَاشِفُ الْأَمْرَ الَّذِي قَدْ كَتَمْتَهُ
فَيُبْدِيهِ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ
وَيُخْبِرُ بِالْأَمْرِ الْمُهْمِّ وَإِنْ خَفَا
فَيَأْتِي بِهِ التَّعْرِيفَ مِنْ غَيْرِ فِتْرَةٍ⁽¹¹⁾

غير أن الذي استقصى تلك
الكرامات، وحكاها بكثير من
التفصيل والبيان هو الشيخ
الحسين الورثيلاني في الرحلة،
وقال: «وكراماته كثيرة، وقد كتبنا
منها نبذا في شرحنا لوظيفته عند
ختمه، ولم أذكر فيه كرامة لم
أرها مسطرة، غير أنها تواتر أمرها
واشتهر»⁽¹²⁾، وخصص فصلا
لذكر مناقب سيدي يحيى العيدلي
وكراماته آخر شرحه للوظيفة⁽¹³⁾،
ولم يكتف بذلك بل ألف رسالة
خاصة في كرامات الشيخ سيدي
يحيى العيدلي ومناقبه⁽¹⁴⁾.

وغالب هذه الكرامات يكتنفها
الكثير من المبالغة والإغراق في
الخيال⁽¹⁵⁾، حتى إنه يصعب تصديق
الكثير منها في عصرنا هذا، وإن
كانت متداولة ومقبولة في عقلية

المجتمع وقتئذ، ولذلك فإنني لا
أعلق كثيرا عليها، لأنه ليس من
العدل والإنصاف الحكم على عقلية
مجتمع بعقلية مجتمع آخر تغيرت
فيه الظروف التاريخية والاجتماعية
والثقافية والمعطيات العلمية.

الشيخ سيدي يحيى العيدلي
والتأليف

يبدو أن الشيخ سيدي يحيى
العيدلي لم يهتم بالتأليف كما اهتم
بالتربية والتدريس والتعليم، شأنه في
ذلك شأن الكثير من علماء الغرب
الإسلامي، ولما احتاج إلى كتاب
يعتمده في التدريس لتلاميذه طلب
ذلك من صديقه وزميله في الدراسة
الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي،
الذي اعتذر له بسبب تقدمه في
السن، وأحاله على مؤلفاته الأخرى.
ويذكر عنه أنه شرح الوغليسية
كما ذكر الدكتور أبو القاسم
سعد الله⁽¹⁶⁾، غير أن الأقرب في
نظر الأستاذ محمد الصغير بلعلام
أن الشيخ سيدي يحيى قد درّس

الوغيلسية لتلاميذه، وربما يكون أحد هؤلاء التلاميذ جمع شرح أستاذه في كتاب⁽¹⁷⁾.

ثم إن الشيخ سيدي يحيى العيدلي أشار على تلميذه عبد الرحمن الصباغ أن يشرح الوغيلسية، وقام الصباغ بذلك فعلا، ونبه إلى ذلك في مقدمة هذا الشرح قائلا: «... فطلب مني شيخنا وبركتنا سيدي يحيى...، أن أختصره له⁽¹⁸⁾ اختصارا سالما من الإكثار الممل والاختصار المخل، فكان ما طلبه من النظر السديد والرأي الرشيد، فأجبتة، وإجابته حتم، ومساعدة مراده غنم، وتوسلت إلى الله ببركاته أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، ولنا لا علينا حجة نتصل بها في درجات النعيم، إنه جواد كريم»⁽¹⁹⁾.

هذا، ولا يعرف من آثاره إلا «الوظيفة» التي يروى أنه أوصى أولاده وطلابه ومحبيه بقراءتها في أوقات مخصوصة، وقد انتشرت في المنطقة كلها، وبقي الناس يردّدونها

في المساجد والزوايا إلى اليوم، وقد تولى شرحها بعض العلماء منهم:

1 الشيخ محمد بن علي الخروبي، تلميذ الشيخ يحيى العيدلي، كما ذكر الشيخ الحسين الورثيلاني في هذا الكتاب⁽²⁰⁾.
3 الشيخ الحسين الورثيلاني، في كتاب سماه «شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار لوظيفة الشيخ العارف بالله النبراس المختار»، وهو الذي تقدمه للقراء في هذه الطبعة.

إسهامه في النهضة العلمية

لم تعرف المنطقة الممتدة من بني يعلى إلى بوجليل مرورا ببني ورثيلان وبني عيدل نهضة علمية كما عرفت بها بعد ظهور الشيخ سيدي يحيى العيدلي، فقبل القرن التاسع الهجري لا نكاد نجد ذكرا لهذه المنطقة كحاضرة علمية، لكن بعد هذا القرن نشأت فيها مراكز علمية نشطة أمّدت الفكر الإسلامي بكثير من الأسماء العلمية اللامعة، وبزخم من الإنتاج العلمي المتميز في شتى

الفنون الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية، بل أصبحت هذه القرى تستقطب الطلبة والدارسين من جهات مختلفة⁽²¹⁾.

إن أثر الشيخ سيدي يحيى العيدلي في هذه النهضة نستشفها من رسالة الشيخ سيدي التواتي التي بعث بها إلى الشيخ العيدلي وجاء فيها: «إنك أحيت أمورا درست، وطرقا ذهبت، وأنت المحقق الفاضل صاحب الوقت»⁽²²⁾.

وإلى هذه القفزة العلمية والحضارية أشار الشيخ عبد الرحمن الصباغ تلميذ سيدي يحيى العيدلي بقوله:

أَتَى بَعْدَ مَا غَلَبَ الضَّلَالُ عَلَى الْوَرَى
وَأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا دُجَى فِي دُجْنَةٍ
وَبَعْدَ فَسَادِ الدِّينِ وَالنَّاسِ فِي عَمَى
حَيَارَى فَلَا يُرْجَى لَهُمْ بُرْءٌ عِلَّةً⁽²³⁾

وبقوله:

أَتَاكُمْ غِيَاثُ جَامِعٍ لِسَتَاتِكُمْ
يُقِيمُ الْهُدَى حَقًّا وَمُخِييَ الشَّرِيعَةِ

وَيَمْحُو ضَلَالَةَ الْجَهَالَةِ وَالْعَمَى
وَيُنْفِي وُلاَةَ الْجُورِ فِي كُلِّ فَجْوَةٍ⁽²⁴⁾

مكانته العلمية

إن النهضة العلمية التي أسهم الشيخ سيدي يحيى العيدلي في بعثها في المنطقة، لدليل على الرتبة العلمية التي تبوأها، يشهد لذلك تلك الآثار الطيبة التي أضافها إلى تَمْقُرة والمناطق المحيطة بها، ويشهد لذلك أيضا زاويته العامرة في تَمْقُرة، والزوايا الأخرى التي أسسها في بجاية، وتخرج منها عدد من التلاميذ الذين ذكرنا بعضهم فيما سبق.

وقد شهد له بهذه الرتبة العلمية أقرانه وتلاميذه والأجيال التي تعاقبت بعده، فها هو قرينه في العلم الشيخ سيدي التواتي البجائي يخاطبه مثنيا عليه فيقول: «أحييت أمورا درست، وطرقا ذهبت وأنت المحقق الفاضل صاحب الوقت»⁽²⁵⁾.

وأكد ذلك تلميذه عبد الرحمن الصباغ الذي قال عن سيدي يحيى العيدلي: «شيخنا الإمام المشتهر بالعلم

والصلاح بين الأنام، الذي ألف الله
ببركاته قلوب العباد، وأحيا ببركاته ما
اندرست أعلامه من البلاد»⁽²⁶⁾.

وكان من علماء الشريعة الجامعين
لعلوم القرآن الكريم والسنة النبوية،
العاملين بهما، يقول عنه تلميذه
الصباغ:

وَهَلْ أَكَلْتُ مِنْهُ الْهَوَامُ لِسَانَهُ
وَقَدْ كَانَ فَصِيحًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ⁽²⁷⁾

وأشار الصَّبَاغُ إلى جوانب من
شخصية سيدي يحيى المعرفية
ومكانته العلمية، فقال:

هُوَ الْعَالِمُ السَّامِيُّ بِهِ النَّاسُ تَهْتَدِي
إِلَى الْحَقِّ بَعْدَ التَّيِّهِ فِي غَيْرِ غَفْلَةٍ⁽²⁸⁾

وهو من العلماء الربانيين العاملين
الجامعين بين الشريعة والحقيقة،
والعلم والعمل والخلق، وعن ذلك
يقول تلميذه عبد الرحمن الصباغ في
مرثيته التي عدّد فيها مناقبه:

هُوَ السَّيِّدُ الْمَشْهُورُ بِالذِّينِ وَالثَّقَى
وَبِالْعِلْمِ عِلْمُ الشَّرْعِ عِلْمُ الْحَقِيقَةِ⁽²⁹⁾
وقوله:

هُوَ الْغَيْثُ جُودًا كَالْعَرِيمِ أَنْسَجَامُهُ
هُوَ الْبَحْرُ عِلْمًا وَالْعَزَائِمُ جَلَّتْ⁽³⁰⁾

مكانته الروحية

إن المطلع على سيرة الشيخ
يحيى العيدلي يدرك المكانة
الروحية التي تبوأها، فكل الذين
تحدثوا عنه ذكروا أنه ولي صالح،
وقطب واصل، وغوث رباني، يقول
الشيخ الحسين الورثيلاني: «وقد
شهد بقطبانية الولي الصالح ذو
التصانيف المفيدة سيدي عبد
الرحمن الصَّبَاغ، ... وشهد له أيضا
بالعلم الظاهر والباطن، وشهد له
أيضا بذلك بحرُ الولاية والعلم
سيدي عبد الرحمن الثعالبي ،
ومثله في العلم والولاية سيدي
التواتي البجائي»⁽³¹⁾.

وفي تأكيد هذا المعنى يقول
مادحه الشيخ الموهوب أولحبيب:



فَأَنْتَ إِمَامُ الْأَوْلِيَاءِ وَقُطْبُهُمْ

وَسُلْطَانُ أَرْضِ الْعَرَبِ بِحُرِّ الْمَكَارِمِ⁽³²⁾

وقد رأى تلميذه الشيخ قايد في المنام رؤيا عجيبة تدل على مكانة الشيخ سيدي يحيى العيدلي، ونقلها الشيخ الحسين الورثيلاني في فضائل الشيخ سيدي يحيى العيدلي، فقال: «ومنه ما أخبره سيدي قايد عن نفسه أنه رأى حجبا عظيمة تذهل عند رؤيتها العقول، وأنه رأى أمرا عظيما وأنه أعظم ما رأى، قال: فلما تحيرت وإذا بقائل يقول: هذا ربك وإني أسأله، فبدأت بالشيخ سيدي يحيى، فقلت له: يا رب ما شأن سيدي يحيى عندك؟ فكنت أسمع قائلا يقول: لو طلب مني الشفاعة لشفّعت في الثقلين، غير أن الكلام الذي سمعته منه لا يمكن أن يعبر عنه من شدة الحلاوة...»⁽³³⁾.

ورآه بعض الصالحين في المنام وهو على قيد الحياة، يُكرّم في عرصات القيامة، وهي رؤيا طويلة نقلها الورثيلاني في فضائل الشيخ

سيدي يحيى العيدلي آخر شرح الوظيفة⁽³⁴⁾.

مكانته الاجتماعية

تبوأ الشيخ سيدي يحيى العيدلي مكانة علمية في بلده، وفي المناطق المجاورة لها، وصار يشار إليه بالبنان، قال عنه الورثيلاني في الرحلة: «...الشيخ الولي الصالح، والقطب الواضح، رحمة بلدنا، وغيث وطننا، سيدي يحيى العيدلي، نفعا الله به آمين»⁽³⁵⁾.

وبقيت الذاكرة الشعبية تحتفظ له بكل التقدير والاحترام والتبجيل، وظلّ الناس يروون كراماته، وهذه الكرامات كما أسلفت الذكر وإن كان فيها كثير من المبالغة ويصعب تصديقها في الغالب⁽³⁶⁾، فإنها تدل على مكانة الشيخ في ضمير المجتمع رغم تعاقب السنين والقرون.

ومن آثار هذا التقدير والاحترام أن السكان في مختلف القرى والمداشر كانوا يجعلون لأبناء

ويدفع عنهم أذى الظالمين، ويشفع لهم في قضاء حوائجهم، ويسعف مختلف حاجاتهم المادية والمعنوية والروحية، فلما رأى الناس منه هذا كله، قابلوه بكل هذا الاحترام والتقدير بل بالتبجيل والتعظيم، ومن عرف منطقة تُمُقَرَّة وما يحيط بها من المدن والقرى والمداشر، يدرك أنه لم يحظ أحد من العلماء والأولياء بما حظي به الشيخ سيدي يحيى العيدلي⁽³⁸⁾.

أخلاقه وصفاته

اجتمعت في الشيخ سيدي يحيى العيدلي أخلاق فاضلة، وآداب جمّة، عرفها بها القاصي والداني، والشيء من معدنه لا يستغرب، وعن مجموع هذه الأخلاق يقول الشيخ عبد الرحمن الصباغ:

لَقَدْ وَسِعَ النَّاسَ الْجَمِيعَ كَرَامَةً

حِلْمًا بِأَخْلَاقٍ حَسَنٍ وَطَيِّبَةٍ⁽³⁹⁾

ثم عدّد هذه الأخلاق الحسان، فذكر منها: الحلم، والهيبة، والعفو

سيدي يحيى العيدلي وذريته وزاويته جزءاً من محاصليهم عقب كل حصاد، عن طيب خاطر وفرح ورضى. وفي هذا السياق يروي الأستاذ محمد الصغير بلعلام أنه في فترة طلب العلم بزاوية سيدي يحيى العيدلي في «تُمُقَرَّة»، كان يطوف رفقة مجموعة من الطلبة على القرى والمداشر المحيطة بالزاوية، ليجمعوا هذا النصيب الذي تعود الناس على إعطائه وتوارثوا ذلك أبا عن جدٍّ وكابر عن كابر⁽³⁷⁾.

إن المكانة التي تبوأها الشيخ سيدي يحيى العيدلي في المجتمع لم تأت سدى ولا صدفة، ولكنها كانت نتيجة صدق وإخلاص وتفانٍ في خدمة المجتمع، فالشيخ سيدي يحيى العيدلي بقي ملازماً لأهل بلده ولم يفارقهم في مدة التحصيل العلمي، ووقف معهم دائماً في السراء والضراء، يعلم أبناءهم، ويرشد الضالين، ويقضي حوائجهم، ويكرم عابري السبيل،

والصفح، والرحمة بالخلق وخصوصاً في الشدائد، والكرم في البذل والعطاء، وحسن الوفادة للضيوف وعابري السبيل، وتفريج الكرب عن المكروبين، وقضاء الدين عن المدينين، وهي كلها أخلاق من هدي السيرة النبوية، وقد صوّر الصباغ هذه الأخلاق في مرثيته قائلاً:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيْنَ أَهْلُهُ
مَهِيْبٌ إِذَا أَبْدَتْ خُطُوبٌ وَجَلَّتْ
فَيَغْفُو وَيَصْفَحُ عَنْ جَهْلٍ إِذَا جَفَا
وَلَا عَتَبَ إِلَّا أَنْ يُخِلَّ بِشُرْعَةٍ
رَحِيمٌ إِذَا مَا النَّاسُ أَرَزَعَهُمْ ضَنَا
تَرَاهُ كَالْوَالِيَةِ الْمُتَلَفِّتِ
كَرِيمُ الْعَطَايَا لَوْ حَلَّتْ خِيَامُهُ
عَلِمْتَ الَّذِي أَتْلُوهُ مِنْ غَيْرِ مَرْيَةٍ
رَأَيْتُ الْحَفَاةَ النَّازِلِينَ رِحَابَهُ
لِقَضْدِ الْعَطَايَا مِنْ شِمَالٍ وَيُمْنَةٍ
فَقِيرٌ لِقَضْدِ الْعَيْشِ يَأْتِيهِ قَاصِدًا
ذَلِيلٌ لِطَلْبِ الْعِزِّ يَسْعَى بِشُرْعَةٍ
وَصَاحِبٌ دَيْنٍ قَدْ أَتَى مُتَضَرِّعًا
بِقَضْدِ الْقَضَاءِ عَنْهُ بِأَجْمَلِ دَعْوَةٍ⁽⁴⁰⁾

وعن كرمه وجوده مع سعة علمه يقول:

هُوَ الْغَيْثُ جُودًا كَالْعَرِيمِ انْسِجَامُهُ
هُوَ الْبَحْرُ عِلْمًا وَالْعَزَائِمُ جَلَّتِ⁽⁴¹⁾
ولما رأى الصَّبَّاعُ أَنْ خَصَالَ
شَيْخِهِ وَمَنَاقِبَهُ يَطُولُ فِيهَا الْكَلَامُ
وَالْوَصْفُ، قَالَ مَلْخَصًا خَصَالَهُ:
مَنْ ذَا الَّذِي لَوْ عَلِمْتَ خَصَالَهُ

بَكَيْتَ عَلَيْهِ بِالدِّمَاءِ بَعْدَ دُمْعَةٍ⁽⁴²⁾
ثم شبّه نفحات الشيخ سيدي يحيى العيدلي بالبحر الذي لا يمكن إخراج ما فيه برشفة، وأضاف أن مواهبه اختصاصية لدنية ليست بمحض الكسب بل جاءت بفيض رحمة الله. وَمَا ذَا عَسَى أَوْرَدُهُ مِنْ نَفْحَاتِهِ
وَمَنْ يَسْتَطِيعُ الْبَحْرَ نَزْحًا بِرَشْفَةٍ
مَوَاهِبُ قَدْ خُصَّتْ بِهِ وَتَجَمَّعَتْ
وَلَيْسَتْ لِكَسْبٍ بَلْ لِفَيْضٍ وَرَحْمَةٍ⁽⁴³⁾

شفاعته في قضاء حوائج الناس
كان للشيخ سيدي يحيى العيدلي
وجاهة في المجتمع، وكان يستعين

منها المجتمع، بفعل ما شاع فيه من الضلال، وفساد الدين، والبؤس، وظلم الولاة وغيرهم من المعتدين والصائلين، وعدم أمن السبل والطرق، وصور معاناة الناس من هذه الأوضاع السيئة، وشكواهم من هذه الحالة المتردية، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء إلى الله تعالى ليفرج عنهم هذا الكروب، ويرفع عنهم هذه الهموم، ويمسح عنهم هذه الأحزان، فجعل الله تعالى الشيخ سيدي يحيى العيدلي سببا لاستجابة دعائهم، بما بثه في المجتمع من الإصلاح الاجتماعي، والتهديب السلوكي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والانتصاف من الظالمين.

يقول الشيخ عبد الرحمن الصباغ:

أَتَى بَعْدَ مَا غَلَبَ الضَّلَالُ عَلَى الْوَرَى

وَأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا دُجَى فِي دُجَّةٍ

وَبَعْدَ فَسَادِ الدِّينِ وَالنَّاسِ فِي عَمَى

خَيَارَى فَلَا يُرْجَى لَهُمْ بُرْءٌ عِلَّةٍ

بذلك في قضاء حوائج الناس والشفاعة لهم عند أولي الأمر، ومن شواهد ذلك قول الورثيلاني في فضائل سيدي يحيى العيدلي: «وكان أيضا ي كاتب الأمير عبد العزيز في حوائج الناس ومصالحتهم، فتارة يمثل وتارة لا، فإن لم يمثل كتب إليه مرة أخرى مع فظ القول وتغليظه، فعند ذلك يجيب قوله ويمثل أمره، وأنه قال: هذا الأمير، أعامله بحسن الخلق والقول اللين فلم يستيقظ، ولو أذقته شيئا من القدر يعني شر القدر وسوء القضاء لعرف قدره»⁽⁴⁴⁾.

دور الشيخ سيدي يحيى العيدلي

في إصلاح المجتمع

صور الشيخ عبد الرحمن الصباغ في مريثة شيخه العيدلي جوانب من الوضع الاجتماعي المتدهور، ومظاهر من انحراف سلوكات الناس، ونوه بالدور الإيجابي الذي أداه الشيخ سيدي يحيى العيدلي في إصلاح الأوضاع الاجتماعية وتصحيح السوكات المنحرفة.

فقد نبّه الشيخ الصباغ إلى الوضعية الصعبة التي كان يعاني

ويضيف الصباغ إلى الأدوار السابقة دور شيخه يحيى العيدلي في وحدة المجتمع وتماسكه، وجمع الشمل، فيقول:

مَضَى الْجَامِعُ الشَّمْلَ الْمُؤَمَّلُ جُودُهُ
فَأَصْبَحَ مَغْنَاهُ سَرَابًا بِقِيَعَةٍ⁽⁴⁷⁾
كما أفادنا الصباغ من خلال مرثيته الطويلة بلمح آخر من ملامح الإصلاح الاجتماعي الشامل، ويتمثل في السعي إلى استرجاع الأمن، وحماية الناس في أنفسهم وممتلكاتهم، ورد عدوان المعتدين، وتأمين سبل المسافرين، وما من شك أنه لم يتح له هذا إلا بتوفيق من الله وعونه، ثم بفضل قوة حضوره، ونفاذ كلمته، وهيبته وجلالة قدره لدى العامة والخاصة. وعن هذه الأدوار يقول الشيخ الصباغ:

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَحْمِي الدِّمَارَ وَقَدْ غَدَتْ
عَلَيْهَا الْأَعَادِي مُشْهَرَاتِ الْأَسِنَّةِ
مَنْ ذَا الَّذِي لِلْحَادِثَاتِ إِذَا سَرَتْ
بَلِيلٍ بَهِيمٍ وَالْخُطُوبُ تَجَلَّتِ⁽⁴⁸⁾

وَمَا مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَطِيعُ دِفَاعَ مَا
قَدْ حَلَّ مِنْ بُؤْسٍ وَشِدَّةِ صَوْلَةٍ
وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا وَيَشْكُو مُصَابَهُ
وَمَنْ يَنْتَصِرُ مِنْهُ يُعَاقَبُ بِصَوْلَةٍ
وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا وَيَدْعُو لِمَنْ يَرَى
وَيَسْمَعُ لِلدَّاعِي بِحُزْنٍ وَعَبْرَةٍ
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَمَالَوْا عَلَى الدَّعَا
بِصَدَقٍ وَإِخْلَاصٍ وَجَمْعٍ لِهَمَّةٍ
لِيَأْتِيَهُمْ بَشِيرٌ مُعَلَّنٌ غَيْرُ خَافٍ
أَيَا إِنَّهَا لَا بُشْرُوا بِالْمَسْرَةِ
أَتَاكُمْ غِيَاثٌ جَامِعٌ لِسِتَاتِكُمْ
يُقِيمُ الْهُدَى حَقًّا وَمُخَيِّي الشَّرِيعَةِ
وَيَمْحُو ضَلَالَةَ الْجَهَالَةِ وَالْعَمَى
وَيَنْفِي وِلَاةَ الْجَوْرِ فِي كُلِّ فَجْوَةٍ
وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمٍ عَدَا
وَيَعْتَزُّ الْجَانِي إِلَيْهِ بِذِلَّةٍ⁽⁴⁵⁾
وقد سعى في عمله الإصلاحي إلى دعوة المذنبين وإعانتهم على التوبة، وإرشاد التائبين إلى سبل الخير، ليصلحوا أنفسهم، ويكفوا أذاهم عن الخلق. وَذُو ذَنْبٍ يَبْكِي يَسْتَغِيثُ بِهِ عَمَّا عَسَى عَظْفُهُ الْمَوْلَى عَلَيْهِ بِتَوْبَةٍ⁽⁴⁶⁾

ويقول أيضا:

وَتَأْمَنُ سُبُلُ النَّاسِ فِي كُلِّ جَانِبٍ

وَمَنْ يَغْتَدِي يَوْمًا سَرِيعًا بِحَسْرَةٍ⁽⁴⁹⁾

ويضيف قائلا:

فَمَنْ لِلْحِمَى بَعْدَ الْحِمَامِ يَحُوطُهُ

وَمَنْ يَقْصِدُ الْعَانِي لِرَفْعِ مَلَمَةٍ⁽⁵⁰⁾

وهذا مؤشر قوي على تعدد

الأدوار التي كان يؤديها الشيخ

العيدلي، فلم يكتف بالتعليم والتربية

وتأديب مريديه وتهذيبهم، بل

امتدت مجالات نشاطاته وأدواره

إلى الإسهام في إصلاح الأوضاع

الاجتماعية العامة، لأنه يدرك تماما

أنه من لم يهتم بأمر المسلمين فليس

منهم، وهذا ما يفسر انقياد الناس له،

ونفاذ كلمته بينهم، والمكانة العلمية

والاجتماعية العالية التي تبوأها الشيخ

في حياته وبعد وفاته، ولنقرأ ما كتبه

تلميذه الصباغ في هذا الملمح:

أَتَدْرُونَ مَنْ ذَا الَّذِي وَصَفْتُهُ

وَحَصَّصَهُ الْمَوْلَى بِأَسْمَى عَطِيَّةٍ

وَعَلَاهُ قَدْرًا وَاضْطَفَاهُ وَلَايَةً

وَوَلَاهُ تَضْرِيفَ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ

وَذَلَّتْ لَهُ الدُّنْيَا جَمِيعًا فَطَاعَهُ

مُلُوكُ الْوَرَى شَرْقًا وَعَزْبًا لِقَبْلَةِ

هُوَ الْجَامِعُ الْمُعْطِي مُرِيدِهِ وَمَا يَشَاءُ

سَرِيعًا بِلَا مَنْ وَلَا خُلْفٍ وَعَدَةٍ

هُوَ الْفَذُّ هُوَ الْفَرْدُ مَا فِيهِ مَعْتَبٌ

لَهُ شَهِدَتْ كُلُّ الْعُدَّةِ وَقَرَّتْ

أَبُو زَكَرِيَّا الْعِيدَلِي إِمَامُنَا

وَقُدُّوتُنَا كَهْفُ النَّجَا لِلْبَرِيَّةِ⁽⁵¹⁾

مكانته الاجتماعية

الشيخ سيدي يحيى العيدلي من

الشخصيات البارزة التي شهد لها

القاصي والداني بالفضل والمراتب

العليا في الصلاح والخير،

يقول عن نفسه كما نقل

الورثيلاني: «الناس يظنون أنني

مكاشف، وما هي إلا واردة ترد علي

توافق الحق»، وقال أيضا: «الناس

يعتقدون أن الشيء كله بيدي أيضا،

وإنما هو بعض الشيء فقط»⁽⁵²⁾.



ويصفه تلميذه الصباغ بقوله:

لَقَدْ وَسَّعَ النَّاسَ الْجَمِيعَ كَرَامَةً

حِلْمًا بِأَخْلَاقٍ حَسَنٍ وَطَيِّبَةٍ

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا يَبُوحُ بِفَضْلِهِ

وَيُثْنِي عَلَيْهِ فِي مَغِيبٍ وَحَضْرَةٍ⁽⁵³⁾

وفي هذا السياق أيضا قال الشيخ

عبد الرحمن الصباغ:

تُوَفِّيَ الْإِمَامُ الْمُزْتَضَى عِلْمُ الْهُدَى

أَبُو زَكْرِيَّا الْمَعْرُوفُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ⁽⁵⁴⁾

وذكر الشيخ الموهوب

أولحيب أن مفاخر ومناقب

سيدي يحيى العيدلي لا تعد ولا

تحصى، وقد شاعت وانتشرت

في الغرب الإسلامي، فقال في

القصيدة التي خصصها لمدح

الشيخ العيدلي:

مَفَاخِرُكُمْ شَاعَتْ وَذَاعَتْ بِغَرِبِنَا

وَأَرَبَتْ عَلَى التَّعْدَادِ يَا خَيْرَ حَازِمٍ⁽⁵⁵⁾

مكانته عند شيخه أحمد بن

إبراهيم

كان للشيخ سيدي يحيى العيدلي

مكانة خاصة عند شيخه سيدي

أحمد بن إبراهيم، لما تفرس فيه

من علامات الخير والصلاح، ومن

الشواهد التي تدل على ذلك ما

حكاه الشيخ الحسين الورثيلاني

في فضائل الشيخ سيدي يحيى

العيدلي قائلا: «ومنها أن الشيخ أول

مشيه إلى بجاية لزيارة سيدي أحمد

بن إبراهيم، فلما وصل إلى الجامع

الأعظم، إذا سيدي أحمد هنالك

مشتغل بالعبادة، فإذا سيدي يحيى

قد دق عليه الباب ويستأذن عليه

الدخول، وإذا سيدي أحمد قال: ما

تريد؟ قال: أريد أن تعلمني في أمر

ديني. قال له سيدي أحمد: اذهب

إلى المفتي، وبعد ذلك رجع يقول:

آه آه، إن الرجل من أهل الخير

الخ.....، فقام ففتح له الباب وأخذ

النعل منه وأجلسه بين يديه، وسيدي

أحمد واضع يده على رأس الشيخ

يحيى العيدلي بالعلم والقطبانية، وذكر منهم الشيخ عبد الرحمن الصباغ، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي، والشيخ سيدي التواتي، والشيخ زروق»⁽⁵⁸⁾ وغيرهم. وممّا وصلنا من عبارات الثناء ما يلي:

1 «العارف المتفيع ظلاله عن اليمين والشمال، الواضح الدليل، الدال على الله بحقائق الإدلال، المثبت طريق القوم، السالك سبيل من تقدم من النجباء الرجال، مقام أخينا الشيخ الذي أخذت حقائقه عجائب القلوب وصفة مرآة قلبه فانطبعت فيها صور المغيبات، فترجم لسانه عن الغيوب، العارف الذي أخلص إبريزه بنار المجاهدة، المتقلب بين الندب والوجوب، الزاهد الناسك الورع، الغوث لجلب المسار وإزاحة الكروب، سيدي أبو زكرياء، أثبت الله قدمه في مزل الأقدام، وأعلى رتبته في رتب الأولياء الكرام.

سيدي يحيى، وكان بعض الفقهاء مع الشيخ سيدي أحمد وصار يقول: يا عجباً ما رأيت أحداً اعتنى به الشيخ كهذا، لأنّه لم يكن أحد أشح عن وقته مثله، لأنني إذا أردت أن أسأله، فإذا وجدته في عبادة أرصد فراغ ما دخل فيه، فأسأله فيجيبني ثم يرجع للصلاة، وهذا دأبه»⁽⁵⁶⁾.

مكائنه عند الملوك والحكام
إن الأدوار العلمية والاجتماعية التي أداها الشيخ سيدي يحيى العيدلي، أكسبته هبة بين الناس، ومكانة دينية وعلمية واجتماعية مرموقة، يحسب لها ألف حساب، وهذا ما دفع الملوك والحكام إلى تعظيم شأنه، واحترامه، والتواضع له، قال تلميذه الصباغ:
كَذَلِكَ الْمُلُوكُ الشَّامِخَاتُ تُنَوِّفُهُمْ
أَتَتْهُ عَلَى الْأَقْدَامِ تَمْشِي بِذِلَّةٍ⁽⁵⁷⁾
ثناء الناس عليه

انطلقت السنة العلماء والصالحين بالثناء عليه، فقد عدّد الشيخ الحسين الورثياني من شهد للشيخ سيدي

لاختيار أمركم، فإنكم أهل كمال
وتحقيق، وأنوار يستضاء بها في هذا
الطريق، وعرفتم بالخلوة الجديدة
الكوثر، القائم بناؤها على الصدق
والقرب.

متّعمكم الله بكل وارد كريم،
وكشف لكم ما يبهجكم ويرغم
الشیطان الرجيم، وقلوبنا والحمد
لله دائمة الاتصال، وما النظر إلى
الأجساد بحال. فربّ مجاور لك لا
تعرفه ومباشر وأنت لا تصفه والمقدر
كائن، والمسكين ينادي بالسالكين
واستمطارهم سحائب الدعاء من
لُجَّتِكُمْ هو المقصود منكم، فأعطونا
منكم ما تطلبون منا لكم، فالدُّعاء
عَلَى ظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابٌ، وليس
بينه وبين الله تعالى حجاب.

والله يجمع ويشمل جمعنا برضاه
ويجيرنا من حر لظاه، وهو حسبنا
ونعم الوكيل، وعائد السلام عليكم
ورحمة الله تعالى وبركاته. انتهى».

﴿ سيدي التواتي البجائي، في
رسالة بعثها إليه من بجاية⁽⁵⁹⁾

من محبّكم ومعتقدكم شوقا
الكاتب إليكم لطف الله بالجميع،
ينتهي لحضرتكم القدسية ومنازلكم
السنّية، سلام عظيم عطر النسيم،
مسفر عن كل خلق كريم ووجه
وسيم، ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتبنا لكم من بجاية حرسها الله
تعالى، كتب الله لكم خيرا يشمل
أقاربكم، ويعم من تحيطه عنايتكم.
والأحوال بفضل الله سارة الأعين
بكمال فضل الله قارة، والحمد لله.
ووصل الأغر الكريم كتابكم
على ظاهر الشوق إليكم، وارتقاب
وتطلع لأنبائكم ممن يصل من
جهتكم، فشكرنا الله تعالى شكراً
يوجب الدوام، ويقرّبكم إلى الله
زلفى في دار المقام، فذكرتم ما
لكم بجانبا من المحبة، فعندنا لكم
أضعاف ذلك مما نعدّه وسيلة إلى
الله تعالى وقربة، وذكرتم على أوقات
الصلاة ما ذكرتم وأشرتكم في ذلك
إلى ما أشرتكم يا نعم السيد الأخ إن
كان ما نقل لكم بالتبرك بذكركم لا

2 «طُودَ العِلْمُ، وشمسُ الحق
والعرفان» .

✍ الشيخ أحمد زروق⁽⁶⁰⁾
3 «يحيى بن أحمد العيدلي
البجائي المغربي، مات سنة ثمانين
تقريبا، وكان عابدا مشارا إليه، أفادنيه
بعض الآخذين عني من المغاربة».

✍ الإمام السخاوي⁽⁶¹⁾

4 «كتب لي سيدي يحيى العيدلي
كتابا ما رأيت كتابا مثله، وآخره: «أدعُ
الله لي أن يرزقني النظرَ إلى وجهه
الكَرِيمِ مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ
مُضِلَّةٍ، إنه جواد كريم»، فعلمت أنه
ممن فتح الله عين قلبه».

✍ سيدي سعيد السفروني⁽⁶²⁾

فَقَدْتُ حَبِيبًا لَوْ جُعِلْتُ فِدَاءَهُ
لَكُنْتُ الَّذِي حَازَ مَسْرَةً
وَكَيْفَ التَّائِسِي وَالْتَسْلِي بغيره
وهيهات أن يأتي الزَّمانُ بأُسُوتي
أَتَاكُمْ غِيَاثُ جَامِعٍ لِسِتَاتِكُمْ
يُقِيمُ الْهُدَى حَقًّا وَمُحْيِي الشَّرِيعَةِ

وَيَمْحُو ضَلَالَةَ الْجَهَالَةِ وَالْعَمَى
وَيَنْفِي وِلَاةَ الْجَوْرِ فِي كُلِّ فَجْوَةٍ
وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمٍ عَدَا
وَيَعْتَذِرُ الْجَانِي إِلَيْهِ بِذَلَّةٍ
وَتَأْمَنُ سُبُلُ النَّاسِ فِي كُلِّ جَانِبٍ

وَمَنْ يَعْتَدِي يَوْمًا سَرِيعًا بِحَسْرَةٍ
أَتَذَرُونَ مَنْ ذَا الَّذِي وَصَفْتُهُ

وَحَصَّصَهُ الْمَوْلَى بِأَسْمَى عَطِيَّةٍ
وَعَلَاهُ قَدْرًا وَاضْطَفَاهُ وَلَايَةً
وَوَلَاهُ تَصْرِيفَ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ

وَذَلَّتْ لَهُ الدُّنْيَا جَمِيعًا فَطَاعَهُ
مُلُوكُ الْوَرَى شَرْقًا وَغَرْبًا لِقِبَلَةِ
هُوَ الْجَامِعُ الْمُعْطِي مُرِيدِهِ وَمَا يَشَاءُ
سَرِيعًا بِلَا مَنْ وَلَا خُلْفٍ وَعَدَةٍ
هُوَ الْفُذُّ هُوَ الْفَرْدُ مَا فِيهِ مَعْتَبٌ

لَهُ شَهِدَتْ كُلُّ الْعُدَاةِ وَقَرَّتْ
أَبُو زَكَرِيَّا الْعِيدَلِي إِمَامُنَا
وَقَدَوْتُنَا كَهْفُ النَّجَا لِلْبَرِيَّةِ
هُوَ الْعَالِمُ السَّامِي بِهِ النَّاسُ تَهْتَدِي
إِلَى الْحَقِّ بَعْدَ التَّيِّهِ فِي غَيْرِ غَفْلَةٍ
هُوَ السَّيِّدُ الْمَشْهُورُ بِالِدِّينِ وَالثَّقَى
وَبِالْعِلْمِ عِلْمُ الشَّرْعِ عِلْمُ الْحَقِيقَةِ

لَقَدْ وَسِعَ النَّاسَ الْجَمِيعَ كَرَامَةً
 حِلْمًا بِأَخْلَاقٍ حَسَنٍ وَطَيِّبَةٍ
 وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا يُبَوِّحُ بِفَضْلِهِ
 وَيُثْنِي عَلَيْهِ فِي مَغِيبٍ وَحَضْرَةٍ
 وَمَاذَا عَسَى أُوْرِدُهُ مِنْ نَفَحَاتِهِ
 وَمَنْ يَسْتَطِيعُ الْبَحْرَ نَزْحًا بِرَشْفَةٍ
 مَوَاهِبُ قَدْ خُصَّتْ بِهِ وَتَجَمَّعَتْ
 وَلَيْسَتْ لِكَسْبِ بَلِّ لَفِيضٍ وَرَحْمَةٍ
 هُوَ الْغَيْثُ جُودًا كَالْعَرِيمِ أَنْسَجَاهُ
 هُوَ الْبَحْرُ عِلْمًا وَالْعَرَائِمُ جَلَّتِ⁽⁶³⁾
 «مَنْ نَوَّرَ اللَّهُ بِصِيرَتِهِ، وَحَسَّنَ
 سِرِيرَتَهُ، فَكَسَى مِنْ حِلِّ أَنْوَارِهِ، فَظَهَرَ
 عَلَيْهِ بَرَكَاتُ أَسْرَارِهِ، شَيْخَنَا الْإِمَامُ
 الْمَشْتَهَرُ بِالْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ بَيْنَ الْأَنَامِ،
 الَّذِي أَلْفَ اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِ قُلُوبَ الْعِبَادِ،
 وَأَحْيَا بِبَرَكَاتِهِ مَا اندرست أَعْلَامُهُ مِنْ
 الْبِلَادِ، وَظَهَرَتْ بِرَكَاتِهِ عَلَى مَنْ لَازَ
 بِحِمَاهِ، وَتَحَصَّنَ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنَ الْغَيْرِ
 مَنْ تَمَسَّكَ بِعُرْوَتِهِ، سَيَدُنَا وَوَسِيلَتُنَا
 إِلَى رَبِّنَا، سَيِّدِي أَبُو زَكْرِيَا يَحْيَى بْنُ
 الشَّيْخِ الْمُقَدَّسِ الْمَرْحُومِ أَبِي الْعَبَّاسِ

أحمد العيدلي، أعلا الله في الدارين
 قدره ورفع ذكره»⁽⁶⁴⁾.

تلميذه الشيخ عبد الرحمن
 الصباغ
 فَأَنْتَ إِمَامُ الْأَوْلِيَاءِ وَقُطْبُهُمْ
 وَسُلْطَانُ أَرْضِ الْعَرَبِ بِحُرِّ الْمَكَارِمِ
 مَفَاخِرُكُمْ شَاعَتْ وَذَاعَتْ بِغُورِنَا
 وَأَزَبَتْ عَلَى التَّغْدَادِ يَا خَيْرَ حَازِمِ

الشيخ الموهوب أولحبيب⁽⁶⁵⁾
 7 «القطب الكامل، والعبقري
 الفاضل، والنبراس القوي، والكوكب
 غير الآفل، سيدي العيدلي»⁽⁶⁶⁾.

«الشَّيْخُ الْقُطْبُ الزُّبَانِي وَالْعَالِمُ
 الْكَبِيرُ الصَّمْدَانِي، الْعَارِفُ بِاللَّهِ الثُّورَانِي،
 الَّذِي عَمَّتْ بَرَكَاتُهُ الْبَعِيدَ وَالْدَانِي،
 شَمْسُ بِلَدِنَا، وَقُطْبُ وَطْنِنَا سَيِّدِي
 يَحْيَى الْعَيْدَلِي، نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِ، وَجَعَلَنَا
 فِي زَمْرَتِهِ بِمَنْهَ وَرِضْوَانِهِ وَرَحْمَتِهِ»⁽⁶⁷⁾.

الشيخ الحسين الورثيلاني
 8 أورد الباحث بلقاسم بن
 سديرة قصيدة تراثية باللغة القبائلية،
 جاء فيها الثناء على سيدي يحيى
 العيدلي، وذكر كراماته ومناقبه⁽⁶⁸⁾.

وفاته رحمه الله

توفي الشيخ أبو زكرياء يحيى العيدلي سنة 881هـ/1476م⁽⁶⁹⁾، ودفن بجوار معمرته، وضريحه معلوم إلى يومنا.

يقول الشيخ الحسين الورثياني: «وتوفي الشيخ سيدي يحيى رضي الله عنه ونفعنا به أمين عام إحدى وثمانين وثمانمائة، وأظنه تاريخه، لأنني نقلته من أوراق مقطعة قديمة، إذ ربما التبس بتاريخ سيدي علي بن من موسى، فإن زابر كرامات الشيخ سيدي يحيى في بعض مناقب سيدي علي بن موسى، غير أن الظاهر أنه تاريخ سيدي يحيى»⁽⁷⁰⁾.

حزن الناس عليه

كان وقع وفاة الشيخ سيدي يحيى العيدلي شديدا على أفراد المجتمع، الذي ارتج لوفاته، وحزن حزنا كبيرا، وقد احتفظ لنا الشيخ الصباغ بصورة من ذلك ذلك الحزن والأسى حينما قال:

تُوفِّي الإمام المُرْتَضَى عِلْمُ الْهُدَى

أَبُو زَكْرِيَا الْمَعْرُوفُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ

فَأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا دِيَا جَى وَأَهْلُهَا

كَمَجْمَعٍ تَهَيَّأَ لِلْفِرَاقِ بِمَرَّةٍ

تَرَاهُمْ حَيَارَى فِي نَوَاجِي خِيَامِهِمْ

كَأَنَّهُمْ مَوْتَى بَغَيْرِ مَيِّتَةٍ⁽⁷¹⁾

وقال أيضا:

فَلَمَّا أَتَيْتُ الْحَيَّ وَالنَّفْسَ فِي عَنَا

وَعَانَيْتُ مَعْنَاهُ عَلَى غَيْرِ عُهْدَتِي

وَنَادَيْتُ سُكَّانَ الْحِمَى فَلَمْ أَجِدْ

سِوَى بَاكِي فِيهِ يُنَادِي بِحَسْرَةٍ⁽⁷²⁾

رثاؤه

سجل الشيخ عبد الرحمن الصباغ الذي يمثل عينة من تلاميذ الشيخ سيدي يحيى العيدلي صفحة ناصعة من الوفاء والحب والتقدير، ممزوجة بالحزن والأسى على وفاة شيخه، فكتب قصيدة طويلة في رثاء شيخه، سجل فيها خصاله ومناقبه، وجوانب مختلفة من حياته

العامرة بالعلم والعمل والصلاح والإصلاح، وقد أشار إليها الشيخ الحسين الورثيلاني في الرحلة حيث قال: «ورثاه عند موته بقصيدة عظيمه»⁽⁷³⁾، والقصيدة بكاملها مثبتة في الملحق الثالث من كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني⁽⁷⁴⁾، على أنني سأقتبس منها بعض الأبيات التي تصور لنا حالة الحزن على الشيخ سيدي يحيى العيدلي، ومشاعر الوفاء له.

يقول الصباغ رحمه الله:

فَقَدْتُ حَبِيبًا لَوْ جُعِلْتُ فِدَاءَهُ

لَكُنْتُ الَّذِي حَازَ مَسْرَةَ

عَدِمْتُ اضْطِبَارِي وَالْفُؤَادُ بِهِ عَنَا

وَمَنْ لِي بِصَبْرٍ بَعْدَهُ وَبِسَلْوَةٍ

تَرَحَّلَ عَنِّي غَيْرَ رَاجٍ إِيَابَهُ

وَحَلَّ بِقَبْرِ فِي فَيَافٍ خَلِيَّةٍ

فَكَيْفُ يَلِدُ الْعَيْشُ فِي مَنْزِلٍ

مَضَى مِنْهُ أَحْبَابِي وَأَهْلُ مَوَدَّتِي

وَكَيْفَ التَّأْسِي وَالتَّسْلِي بغيره

وَهَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيَ الزَّمَانُ بِأُسُوتِي⁽⁷⁵⁾

ثم يضيف بعد أبيات نوه فيها بجانب من خصال الشيخ ومناقبه، وأدواره الاجتماعية والعلمية، فيقول:

وَتَقْتُ بِوَضْلِي وَاسْتَلَنْتُ وَسَادَةً

وَخَلْتُ لِيَالِي الْوَضْلِ غَيْرَ مُخَلَّةٍ

كَأَنَّ الْمَنَايَا لَمْ تَكُنْ وَكَأَنَّهَا

بغير أَحْبَابِي أُنِيطَتْ وَخُصَّتِ

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا رَسُولٌ كَأَنَّهُ

يُنَادِي بِصَوْتِ شَابَةٍ بِمَنْيَّتِي

أَلَا أَيُّهَا الْمَسْرُورُ بِالْوَضْلِ وَالْمُنَى

تَنْبَهُ وَعُدَّ الصَّبْرَ أَجْمَلَ عُدَّتِي

وَلَا تَصْرِفَنَّ وَجْهَ الْقَضَاءِ بِسَخْطَةٍ

فَإِنَّ الْقَضَاءَ يَجْرِي عَلَيْهِ بِصَوْلَةٍ

وَمَنْ الَّذِي يَسْتَطِيعُ دَفْعَ مُرَادِهِ

فَأَنْتَ وَكُلُّ النَّاسِ تَسْعَى بِخُفْرَةٍ

تُوفِّيَ الْإِمَامُ الْمُتَرْضَى عِلْمُ الْهُدَى

أَبُو زَكَرِيَّا الْمَعْرُوفُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ

فَأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا دِيَا جَى وَأَهْلُهَا
كَمَجْمَعٍ تَهْيَأُ لِلْفِرَاقِ بِمَرَّةٍ
تَرَاهُمْ حَيَارَى فِي نَوَاحِي خِيَامِهِمْ
كَأَنَّهُمْ مَوْتَى بِغَيْرِ مَنِيَّةٍ
مَضَى الْجَامِعُ الشَّمْلَ الْمُؤَمَّلَ جُودُهُ
فَأَصْبَحَ مَعْنَاهُ سَرَابًا بِقِيَعَةٍ
مَضَى وَانْقَضَى الْأَمْرُ الَّذِي شَاءَ رَبُّنَا
كَمَا تَنْقُضِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ مُنِيَّةٍ
فَعُدْتُ إِلَى نَفْسِي بُكَاءً وَحَسْرَةً
وَسَلَّيْتُهَا طَوْرًا فَمَا طُلْتُ سَلَوَتِي
فَسِرْتُ إِلَيْهِ عَاجِلًا غَيْرَ نَاكِصٍ
وَجَفَنِي عَلَى خَدِّي يُتَابِعُ عَبْرَتِي
فَلَمَّا أَتَيْتُ الْحَيَّ وَالنَّفْسُ فِي عَنَا
وَعَانَيْتُ مَعْنَاهُ عَلَى غَيْرِ عُهْدَتِي
وَنَادَيْتُ سُكَّانَ الْحِمَى فَلَمْ أَجِدْ
سِوَى بَاكِ فِيهِ يُنَادِ بِحَسْرَةٍ
بَكَيْتُ وَنَادَيْتُ الضَّرِيحَ تَأْسُفًا
أَلَا أَيُّهَا الْقَبْرُ التَّرِيحُ بِقَفْرَةٍ

تَرَى حُسْنَ ذَاكَ الْوَجْهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ
غَيْرُهُ وَقَعُ الْحِمَامِ بِتُرْبَةٍ
وَهَلْ أَكَلْتُ مِنْهُ الْهَوَامُ لِسَانَهُ
وَقَدْ كَانَ فَصِيحًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
وَكَيْفَ تَرَى الْعُيُونَ وَقَدْ بَكَتْ
وَمِنَ اللَّيْلِ جُنْحًا وَالْعُيُونَ بِهَجْعَةٍ
وَكَيْفَ تَرَى الْأَكْفَانُ مِنْ بَعْدِ جِلْدَةٍ
فَهَلْ بَلَيْتُ حَتَّى تَلَاشْتُ وَفَتَّتْ
خَلَوْتُ بِهِ يَا قَبْرُ عَنِّي وَغَيَّبْتَ
مَحَاسِنَهُ عَنِّي وَبِئْتُ بِحَسْرَةٍ
فَيَا سَاكِنَ الْقَبْرِ التَّرِيحِ بِصَفْصَفٍ
سَقَيْتَ الْحَيَا غَيْثًا كَخَدِّ بِعَبْرَةٍ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ قَدْ أَتَيْتُكُمْ زَائِرًا
فَهَلْ تَسْمَعُنْ مِنِّي السَّلَامَ بِمَرَّةٍ
تَذْكُرُ لِيَالِي الْوُضَلِ فِي الْمَنْزِلِ الَّذِي
تَوَالَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ مِنْ كُلِّ فَجْوَةٍ
فَمَنْ لِلْحِمَى بَعْدَ الْحِمَامِ يَحُوطُهُ
وَمَنْ يَقْصِدُ الْعَانِي لِرَفْعِ مَلَمَّةٍ⁽⁷⁶⁾

وأضاف قائلا:

أَتَيْتُكَ وَالْأَوْجَالَ حَوْلِي تَجَمَّلْتُ

فَصِرْتُ رَهِينًا فِي حَبَائِلِ مَحَنَةٍ
وَأَعْيَى الْأَطْبَاءِ بَعْضُ حَالِي فَلَوْ تَرَى

مُصَابِي بِكَتِّ مِنْكَ الْعُيُونُ بِدَمْعَةٍ⁽⁷⁷⁾

وأعلن الصباغ عن التزامه بحبل
الوفاء والمحبة، الدال على معنى
الاستمرار على منهج الشيخ والسير
على طريقه، فقال:

وَمَا دُمْتُ دَهْرِي عَايِشًا غَيْرَ ذِي ضَنَا

أَزُورُكَ كَيْ أَحْظَى بِأَجْمَلِ مَحَبَّةٍ⁽⁷⁸⁾

والتجأ في آخر القصيدة إلى الله
بالدعاء والضراعة لينزل عليه شآبيب
الصبر، لتجاوز المصيبة التي حلت به،

سائلا الله تعالى لشيخه رحمة من الله،
يدخله بها الجنة دار السلام، فيقول:

فِيَا رَبِّ اقْبَلْ دَعْوَتِي وَضَرَاةِي

وَجُدْ بِالرِّضَى وَالْعَفْوِ مِنْكَ لِزَلَّتِي
وَحُلِّ وَثَاقِي وَاضْرِفْنِ إِسَاءَتِي

فَمَنْ ذَا الَّذِي أَرْجُو لَنْيَلِ مَسَرَّةٍ
وَأَمْطِرَ عَلَى قَبْرِ الْإِمَامِ تَحِيَّةً

يَحِلُّ بِهَا دَارَ السَّلَامِ بِسُرْعَةٍ

بِحَقِّ الَّذِي فَضَّلْتُهُ وَرَفَعْتُهُ

وَجَعَلْتُهُ سِرَّ الْوُجُودِ لِرَحْمَةٍ

سَلَامٍ عَلَيْهِ مَا حَيْثُ وَكَلَّمَا

لَعَبَ الصَّبَا بِالْبَانِ جَنَحَ عَشِيَّةٍ⁽⁷⁹⁾

الهوامش

- (1) انظر: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، للفكون، ص200.
- (2) انظر: الرحلة الورثيانية مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني(1/133).
- (3) إسهامات علماء زواوة في الحياة الفكرية الإسلامية من القرن العاشر إلى الثالث عشر الهجري/16-19م، للباحث محند أكلي آيت سوكي،

- رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2014-2015، ص 144.
- (4) معلومات شفوية أفاد بها الشيخ محمد أمزيان لخساف يوم 2005/08/14، نقلا عن والده رحمة الله عليهما.
- انظر: محاضرة: «الشيخ العيدلي، ودور زاويته...» للدكتور محند أكلي أيتسوكي
- (5) الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، لأحمد البوني، ص 30. نقلا عن: محاضرة: «الشيخ العيدلي، ودور زاويته...» للدكتور محند أكلي أيتسوكي.
- (6) أشار إلى ذلك الحسين الورثيلاني إشارة عابرة حيث قال: «لما رجع من سياحته، وقد مكث فيها مختفيا عن الناس نحو من عشر سنين».
- انظر: الرحلة الورثيلانية مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني (50/1-51).
- (7) راجع: علماء من زاوة لمحمد الصغير بلعلام (158/1).
- (8) سورة الرعد/28.
- (9) سورة القلم/44-45.
- (10) راجع: شوارق الأنوار للورثيلاني ص 587.
- (11) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي للصباغ، ملحق 3، ضمن كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 611.
- (12) انظر: الرحلة الورثيلانية مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني (50/1-51).
- (13) راجع: شوارق الأنوار للورثيلاني ص 543-574.
- (14) انظر: كرامات الشيخ سيدي يحيى العيدلي ومناقبه للورثيلاني، ضمن كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 583-607.
- (15) راجع: شوارق الأنوار للورثيلاني ص 592، 593، 594، 595، 596، 597... وغير ذلك.
- (16) تاريخ الجزائر الثقافي (88/1).
- (17) انظر: علماء من زاوة لمحمد الصغير بلعلام (169/1-170).
- (18) طلب الشيخ سيدي يحيى العيدلي من تلميذه الصباغ أن يختصر شرح الوغليسية الذي ألفه الشيخ الصالح العالم الوارع سيدي أبو محمد عبد الكريم بن علي الزواوي).
- (19) انظر: شرح الوغليسية (عمدة البيان

- (30) راجع: المصدر نفسه، ص 611.
- (31) انظر: الرحلة الورثيلية مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني (46/1).
- (32) راجع: شوارق الأنوار للورثيلاني، ص 615.
- (33) راجع: المصدر نفسه ص 566.
- (34) راجع: المصدر نفسه ص 567 568.
- (35) انظر: الرحلة الورثيلية مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني (46/1).
- (36) وهذا لا يعني إنكار كرامات الأولياء y، فالله على كل شيء قدير، يقول اللقاني في جوهرة التوحيد ص 6.
- وَأَثْبَتَ لِلأُولِيَا الْكَرَامَةَ
وَمَنْ نَفَاها فَأَنْبَذَ كَلَامَهُ
- (37) انظر: علماء من زواوة لمحمد الصغير بلعلام (170/1).
- (38) انظر: المرجع نفسه (160/1).
- (39) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي للصباغ، ملحق 3، ضمن كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 611.
- (40) راجع: المصدر نفسه، ص 611.
- (41) راجع: المصدر نفسه ص 611.
- (42) راجع: المصدر نفسه، ص 609.
- في معرفة فروض الأعيان) للصباغ، مخطوط مكتبة الحرم المدني، ص 1.
- (20) انظر: شوارق الأنوار للورثيلاني ص 140، 151، 163... الخ
- (21) انظر: علماء من زواوة لمحمد الصغير بلعلام (171/1).
- (22) انظر: الرحلة الورثيلية مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني (49/1)، وراجع ص 29.
- (23) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي للصباغ، ملحق 3، ضمن كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 610.
- (24) راجع: المصدر نفسه، ص 610.
- (25) انظر: الرحلة الورثيلية مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني (49/1).
- (26) انظر: شرح الوغليسية (عمدة البيان في معرفة فروض الأعيان) للصباغ، مخطوط مكتبة الحرم المدني، ص 1.
- (27) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي للصباغ، ملحق 3، ضمن كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 613.
- (28) راجع: المصدر نفسه، ص 611.
- (29) راجع: المصدر نفسه، ص 611.

(57) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي

للصباغ، ملحق 3، ضمن كتاب
شوارق الأنوار للورثياني ص 610.

(58) انظر: الرحلة الورثيانية مع تعليقات
ابن مهنا القسنطيني (46/1).

(59) راجع: شوارق الأنوار للورثياني ص
570 272.

(60) علي أمقران السحنوني: « هذا الشيخ
المجهول (الشيخ أبو زكرياء يحيى العيدلي)
1476هـ/1881م »، في: مجلة الدراسات
التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر،
العدد الرابع، 1408هـ/1988، ص 42.
نقلا عن: محاضرة: «الشيخ العيدلي، ودور
زاويته...» للمدكتور محمد ألكلي أيتسوكي.

(61) انظر: الضوء اللامع للسخاوي (10/222).

(62) راجع: شوارق الأنوار للورثياني ص 611.

(63) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي
للصباغ، ملحق 3، ص 611.

(64) انظر: شرح الوغليسية (عمدة البيان
في معرفة فروض الأعيان) للصباغ،
مخطوط مكتبة الحرم المدني، ص 1.

(65) راجع: قصيدة في مدح الشيخ العيدلي
للموهوب أولحبيب، ملحق 4، ضمن

(43) راجع: المصدر نفسه، ص 611.

(44) انظر: شوارق الأنوار للورثياني ص
550.

(45) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي
للصباغ، ملحق 3، ضمن كتاب
شوارق الأنوار للورثياني ص 610.

(46) راجع: المصدر نفسه، ص 611.

(47) راجع: المصدر نفسه، ص 612.

(48) راجع: المصدر نفسه ص 609.

(49) راجع: المصدر نفسه، ص 610.

(50) راجع: المصدر نفسه، ص 613.

(51) راجع: المصدر نفسه ص 610.

(52) راجع: شوارق الأنوار للورثياني ص
563.

(53) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي
للصباغ، ملحق 3، ضمن كتاب
شوارق الأنوار للورثياني ص 611.

(54) راجع: المصدر نفسه، ص 612.

(55) راجع: قصيدة في مدح الشيخ العيدلي
للموهوب أولحبيب، ملحق 4، ضمن
كتاب شوارق الأنوار للورثياني ص 616.

(56) راجع: شوارق الأنوار للورثياني ص
555.

- (70) انظر: المصدر نفسه ص 607.
- (71) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي للصباغ، ملحق 3، ص 612.
- (72) راجع: المصدر نفسه، ص 613.
- (73) الرحلة الورثيلية مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني (46/1).
- (74) راجع: شوارق الأنوار للورثيلاني، الملحق 3، ص 609 614.
- (75) راجع: قصيدة في رثاء الشيخ العيدلي للصباغ، ملحق 3، ضمن كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 609.
- (76) راجع: المصدر نفسه، ص 613.
- (77) راجع: المصدر نفسه، ص 613.
- (78) راجع: المصدر نفسه، ص 613.
- (79) راجع: المصدر نفسه، ص 614.
- كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 615 616.
- (66) كرامات الشيخ سيدي يحيى العيدلي ومناقبه، ضمن كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 583.
- (67) انظر: شوارق الأنوار للورثيلاني ص 137.
- (68) Belkassem Ben Sedira: Cours de Langue Kabyle grammaire et versione, ALGER; Librairie Adolphe Jourdan, Pp394,398.
- نقلا عن: محاضرة: «الشيخ العيدلي، ودور زاويته...»، للدكتور محند أكلي أيت سوكي.
- (69) انظر: كرامات الشيخ سيدي يحيى العيدلي ومناقبه للورثيلاني، ضمن كتاب شوارق الأنوار للورثيلاني ص 607.

